الأبعاد التربوية والتعليمية للشعر عند العرب القدامى

The educational and educational dimensions of poetryat the ancientArabs

الدكتور بن دحان شريف*

جامعة طاهري محمدبشار،

(الجزائر)

bendahane.cherif@univ-bechar.dz

الأستاذ الدكتور بوشيبة بوبكر

جامعةطاهري محمدبشار،

(الجزائر)

bouchiba.boubekeur@univ-bechar.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/24 تاريخ القبول:2022/03/16

تاريخ النشر:2022/05/13

ملخص:

لقد كانت للشعر عند العرب القدامى مكانة مميزة، فقد كلفوا به، وقدسوه، فرووه وخلدوه، ولعل ذلك راجع لما كان يضطلع به هذا الشعر من وظائف فقد كان ديوان العرب به تخلد المآثر، وتذكر الأنساب، والأيام، بل كان الحامل لتراثهم ومعارفهم كلها، إن هذه الوظائف التي أرب الشعر بها جعلته أقرب إلى نفوس العرب، فكان شديد التأثير فيهم.

إن قوة التأثير التي كان يملكها الشعر عند العرب هي التي وهبت الشعر بعدا تربويا من خلال اشتغاله بالحث على المكارم، والترغيب فيما تواضعت عليه المجموعة الثقافية، فمخزون ذاكرة الفرد من أشعار يجعله يستحضر القيم التي يتوخاها ويحافظ عليها، كما كان للشعر العربي القديم بعدا تعليميا بوصفه وعاء اللغة ومستودعها، فاقتبس منه الشاهد والمثل، وبهذا أصبح الشعر مصدرا تربويا، وتعليميا ينهل منه المربون، استشهادا وتمثيلا، لسهولة حفظه، وقرب مأخذه، وغزارة معانيه، وجمال قوالبه.

الكلمات المفتاحية:شعر؛ عرب قدامى؛ تربية؛ تعليمية؛ اللغة.

Abstract :

Poetry had a distinguished position among the ancient Arabs, so they commissioned it, sanctified it, venerated it and immortalized it, and perhaps that is due to the functions that this poetry performed, for poetry was the office of the Arabs in which the exploits were immortalized, and the lineages were remembered, and the days, but it was the carrier of their heritage and all their knowledge. These jobs with which he trained poetry brought him closer to the souls of the Arabs, and he was very influential on them.

The power of influence that poetry had among the Arabs is what endowed poetry with an educational dimension through its work by urging the nobles and encouraging what the cultural group was humbled by. The container of language and its repository, so he quoted from it the witness and the proverb, and thus poetry became an educational and educational source from which educators draw, in martyrdom and representation, because of its ease of memorization, its closeness to its source, the abundance of its meanings, and the beauty of its templates.

KeyWords: Poetry; ancient Arabs; education; educational; the language.

*المؤلف المرسل

مقدمة:

لقد كلف العرب القدامى بالشعر، وتعلقوا به أشد التعلق، وذلك للوظائف التي اضطلع بها، والتي جعلته يحتل هرم التراتبية الثقافية عندهم، فهو الحامل لتراثهم، المخلد لمآثارهم، والحافظ لأنسابهم، والمعبر عن آمالهم، والمكرس لقيمهم، وتبعا لذلك يكون النظام التربوي العربي القديم قد احتوى الشعر القديم منذ نشأته واستخدمه في صون القيم الاجتماعية والعادات، وبثها وترسيخها في المجتمع. فهل كان الشعر العربي القديم يحمل في ذاته بعدا تربويا وتعليميا؟، تحاول هذه المقالة الوقوف على الأبعاد التربوية والتعليمية للشعر العربي القديم، وكيف تجلت هذه الأبعاد عند العلماء العرب القدامى؟.

وقد اعتمدنا في سبيل ذلك منهجا مركبا يستمد ملامحه من التصور الإشكاليلهذا المقال، مستفيدين من إجراءات الوصف والتحليل، للوقوف على تحول في وظيفة هذا الشعر من الاجتماعية إلى التربوية والتعليمية، وقد ناقشنا في بداية هذا البحث مكانة الشعر عند العرب ووظيفته، والتي أهلته بأن يضطلع بهذا الدور التربوي والتعليمي الذي نبحثه، ثم تناولنا البعد التربوي للشعر عند العرب من خلال ربطه بالوظيفة الاجتماعية، وبعدها تحدثنا عن البعد التعليمي للشعر في جانبه الديني واللغوي.

1- الترصيف المعرفي للمصطلحات:

يقصد بالترصيف المعرفي للمصطلحات هو إيراد المفاهيم المرتبطة بالمصطلحات في بعدها الابستمولوجي، أي إيراد المعنى الذي اكتسبه المصطلح في تفاعله السياقي مع المجال المعرفي الذي استخدم فيه، فهو مفهوم يتجاوز أصل الوضع والاستعمال(المفهوم اللغوي)، كما يتجاوز المفهوم الاصطلاحي.

أ- التربية:

تعددت المفاهيم التي أوردها الدارسون للتربية تبعا لتعدد المجالات المعرفية التي اهتمت بها، واشتغلت عليها، من علوم الاجتماع إلى علم النفس، إلى علوم التربية، وبهذا اكتسبت التربية مفاهيم متعددة يمكن أن تنطلق من كونها " عملية النمو وعملية الرعاية والإصلاح وهذا هو المعنى الأساسي للفظة تربية من الناحية اللغوية، وهذا أيضا لب التربية" (حكمة البزار وإبراهيم الشلبي، 2002، ص6) .

وتكتسب التربية بعدها الاجتماعي المتصل بحياة الفرد داخل المجتمع هي " نشاط يؤثر في تكوين الفرد وسلوكه سلبا أو إيجابا أياً كان مصدر هذا التأثير، وهي وسيلة الاستمرار الاجتماعي للحياة " (حكمة البزار وإبراهيم الشلبي، 2002، ص7) . فهي تساهم في استمرار المجتمع، إذ تكسب الأفراد القيم والمضامين المتواضع عليها اجتماعيا، فتحافظ من خلال ذلك على النظام الاجتماعي.

والتربية ذات طابع مؤسسي فهي نشاط موجه، وممنهج، ومرتبط بهدف معين فهي " العملية الموجهة المقصودة من اجل إحداث تغيرات مرغوب فيها على سلوك الفرد، أو الجماعة . وهذا النوع من التربية يحدث عادة في المدرسة وفي بعض المؤسسات ذات الأغراض المماثلة أو الموجهة بقصد " (نبية ياسين، دت، ص36).

ب– التعليمية:

تعد التعليمية علما قائما بذاته يشتغل بعملية نقل المعارف وتدريسها، رغم حاجته إلى علوم أخرى من أجل تحقيق أهدافه، انطلاقا من هذا " تعني التعليمية الدراسة العلمية لطرائق التدريس وتقنياته، وأشكال تنظيم حالات التعلم التي يخضع لها المتعلم بغية الوصول إلى تحقيق الأهداف المنشودة... إنه تخصصيستفيد من عدة حقول معرفية مثل: اللسانيات، وعلم النفس، وعلم الاجتماع" (بشير ابرير، 2001، ص 70–71)، تحاول التعليمية بما تملكه من إجراءات وأدوات أن تكون علما تطبيقيا يعنى بطرائق التدريس وآلياته، من خلال التجريب والتقييم والتقويم، مما يتيح تحقيق الأهداف المرتبطة بالبرامج والخطط التعليمية.

ترتبط التعليمية بالبيداغوجيا، بل تعتبر فرعا منها وتتخذ من التدريس موضوعا لها، فهي تعنى بإعداد البرامج والاستراتيجيات البيداغوجية، ومعرفة مدى فاعليتها، إلى جانب طرائق عملها، فـ " هي علم تتعلق موضوعاته بالتخطيط للوضعية البيداغوجية وكيفية تنفيذها ومراقبتهاوتعديلها عند الضرورة " (أحمد حساني، 1996، ص138).

وتفريغا لما سبق تصبح التعليمية عملية جادة ومستمرة، لإيجاد طريقة ملائمة وفعالة لإيصال المضامين المعرفية، ومحاولةالإقناع بها، فهي " العلم المسؤول عن إرساء الأسس النظرية والتطبيقية للتعلم الفاعل والمعقلن " (أنطوان صياح وآخرون، 2006، ص18).

2– الشعر عند العرب (المكانة والوظيفة):

لقدكانالشاعرعند العرب يحتلمكانةلاتضاهيفيهرمالتراتبيةالاجتماعية،فهولسانحالالقبيلة،المخلدلأيامهاوبطولاتها،المنافحعنأنسابهاوأعراضها،يقولابنرشيقفيذلك " كانتالقبيلةمنالعربإذانبغفيهاشاعرأتتالقبائلفهنّأتها،وصنعتالأطعمة،واجتمعتالنساءيلعبنبالمزاهر،كمايصنعونفيالأعراس،ويتباشرالرجالوالولدان،لأنهحمايةلأعراضهم،وذبّعنأحسابهم،وتخليدلمآثرهم،وإشادةبذكرهم. وكانوالايهنئونإلابغلاميولدأوشاعرينبغفيهم،أوفرستنتج " (ابن رشيق، 1981، 65).

لاريبإذاًأنالوظيفةالتيكانيضطلعبهاالشعر،هيالتيوهبتههذهالمنزلةفينفوسالعربفيالجاهلية،فقدكانلزاماأنيحتلالشاعروظيفياهرما لتراتبيةالثقافيةلأمةتربفيالشعردرعاواقييحميأعراضها،ويخلدمآثرها.

إن ارتباط الشعر الجاهلي في أصل وجوده بالوظيفة الاجتماعية، هو الذي وهبه هذه المكانة، ذلك أن الشعر نشأ مرتبطا بحاجة وظيفية، قبل ارتباطه بالقصد الفني. فالشعر عند العرب لم ينشأ إلا لدفع شر، أو تخليد أثر، أو الفخر بنسب، أو ... ولذلك قال ابن سلام الجمحي: " لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات، يقولها الرجل في حاجته " (ابن سلام الجمحي، 1974، 26) أي أن الشعر عند العرب لم يرتبط بالوظيفة الجمالية الفنية فقط بل كانت له وظائف متعددة عبر عنها ابن سلام بـ " يقولها الرجل في حاجته ".

والمتمعن في نصوص العرب القدامى يعرف أن الاحتفاء بالشعر إنما يرجع إلى أهمية الوظيفة التي ينهض بها في المجتمع من خلال المضامين التي يحملها، فهو " علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه " (المصدر نفسه، 22) بهذا يطالعنا ابن سلام. والرأي نفسه نجده عند ابن رشيق حيث يعلن في خطة كتاب العمدة " فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته، وتمتثل إرادته (...) والشعر أعلى مراتب الأدب " (ابن رشيق، 1981، 29)، وهو ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم كما يقول ابن خلدون (ابن خلدون، 1984، 508)، والظاهر من هذه النصوص هو الاتفاق على أن الشعر يحتل مكانة مهمة عند العرب، ولا نظن أن القيمة الفنية والجمالية كانت سببا في ذلك، إنه علم القوم، وديوانهم، أنه يمحل قيم المجموعة الثقافية، ويسجل تاريخها، ويخلد مآثرها، وأنسابها، ومعرفتها، وعليه فإن ما يهب الشعر هذه المكانة عند العرب ليس الشعر في ذاته، وإنما المضامين التي يحملها.

لقداكتسب الشعر الجاهلي – في اعتقادنا – بعده التربوي والتعليمي عند تحوله إلى خطاب اجتماعي يحمل قيمهذه الأمة وأعرافهاويحاول تكريسها داخل المجتمع من خلال الإشادة بها ومدحها والترغيب فيها، فلا يكون إقرارنا بالوظيفة التربوية والتعليمية للشعر إلا من خلال وظيفته الاجتماعية بوصفها سببا لهذا القبول والتمثل والتوظيف. ذلك أنه لا يمكن أن يصير للشعر وظيفة تربوية وتعليمية ما لم يكن يحتل مكانة اجتماعية مميزة، وإلى جانب الإجماع الذي يحققه اجتماعيا، نجده يحفاظ على أهم عناصر الهوية العربية والمتمثلة في اللغة والقيم الاجتماعية، فصار يمثل هوية وانتماءا.

3– البعد التربوي للشعر عند العرب القدامى:

الشعر ديوان العرب، ومستودع حكمتهم، ومستقر علومهم، لم يكن لهم علم أفضل منه ولا أرفع منه، دخل في مسارب حياتهم كلها، واختلط بشؤونهم كافة: العامة والخاصة، حتى صار سمة تسمهم وتميزهم من غيرهم من الأمم الأخرى.

والشعر ميدان واسع ارتادته فئات مختلفة، منها: النقاد والأدباء والفقهاء والمحدثون والمؤرخون والقضاة والعلماء، وغيرهم، حتى ندر أن تجد عَلَماً من أعلام العرب لم ينظم الشعر، ولم يخلف ديواناً يزُّ دواوين الشعراء المعروفين كماً ونوعاً، ويكفي أن تنظر في ترجمة أحدهم حتى تدرك صحة هذا الأمر، بل إن بعضهم اشتهر بشعره أكثر من أدبه وعلمه.

وربما يعود السبب في ذلك إلى المكانة الكبيرة التي حظي بها الشعر في نفوس العرب، حتى قيل: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره (ابن رشيق، 1981، 14)، فقد كانت ألفاظه وتراكيبه، وأوزانه وقوافيه، تشد الناس إليه، فتتذوقه وتألفه النفوس، فيعلق في الذهن، فهو سهل الحفظ قريب المأخذ تأنس له النفوس، فصار بذلك قريبا من نفوس العرب وشديد الالتصاق بهم في كثير من المجالات التي اشتغلوا بها.

وكان التأديب والتربية من تلك المجالات الكثيرة التي دخل الشعر في نسيجها، حتى صار مصدرها ومعينها، فقد لجأ إليه المؤدبون العرب القدماء يغرفون الأدلة والشواهد من معين مائه الذي لا ينضب، يستدلون به على حسن القيم، ووجوب الأعراف، ومكارم الأخلاق أو على صواب فعل وفساد غيره، تسعفهم في ذلك ذاكرة حافظة وثقافة واسعة وعلم غزير.

لقد كان الشعر هو الحامل المادي لثقافة العرب وقيمهم الجمالية، فقد كان ديوانهم، والتمثل الجمالي لخطابهم الثقافي بكل عناصره الثابتة التي تمثل الهوية والانتماء، والقيم والعادات والتقاليد، فكان الحفاظ على ديمومته، وسلامته وصحته، هو الحفاظ على وجودهم وكينونتهم، والمشترك بينهم الذي يستمدون منه شعورهم الجمعي، واستقرارهم الاجتماعي لما يحمل من تقاليدهم وما يحفظ من لغتهم ولغة مصدرهم العقدي، وتبعا لذلك يكون المربون والمؤدبون قد احتووا الشعر القديم منذ نشأته واستخدمه في صون القيم الاجتماعية والعادات، وبثها وترسيخها في المجتمع. فاضطلع بذلك بدور تربوي من خلال اشتغاله بالحث على المكارم، والترغيب فيما تواضعت عليه المجموعة الثقافية، فمخزون ذاكرة الفرد من أشعار يجعله يستحضر القيم التي يتوخاها ويحافظ عليها، وتشكل الذاكرة الجماعية بما تحويه من أشعار تحث على القيم واحترامها، مصدرا تربويا ينهل منه المربون، استشهادا وتمثيلا، لسهولة حفظه، وقرب مأخذه، وغزارة معانيه، وجمال قوالبه.

لقد لفت ابن قتيبة إلى الوظيفة التربوية للشعر في مقدمة كتابه "عيون الأخبار" ، وأشار إلى أن الغرض من إيراده للنصوص الشعرية والنثرية التي أوردها في كتابه، هو صقل العقلوتزكية النفس، وترغيبها في المحامد وكريم الأخلاق، وازدراء الدنايا، ومدار ذلك أن الشعر يقوم بدور تربوي، من خلال تمثله لقيم المجتمع والحفاظ عليها، وتكريسها داخل المجتمع، يقول "هذا الكتاب – وإن لم يكن في القرآن والسنة، وشرائع الدين، وعلم الحلال والحرام – دالّ على معالي الأمور، مرشد لكريم الأخلاق، زاجر عن الدناءة، ناءٍ عن القبيح، باعث على صواب التدبير، وحسن

التقدير، ورفق السياسة، وعمارة الأرض. وليس الطريق إلى الله واحداً، ولا كلّ الخير مجتمعاً في تهجد الليل، وشرد الصيام، وعلم الحلال والحرام، بل الطرق إليه كثيرة، وأبواب الخير واسعة " (ابن قتيبة، 1973، 10)، يكون للشعر القديم بذلك وظيفة داخل النظام التربوي للمجموعة الثقافية، اكتسبها من خلال الاشتغال بحفظ القيم الاجتماعية وترسيخ العادات، والتأكيد على الأعراف.

لقد ربط ابن قتيبة بين الشعر أو الأدب والضبط والتوجيه، إذ يعتبره الفاعل في العملية التربوية والمسؤول عن ضبط سلوك الأفراد، فيوجههم للمكارم ويدلهم على المحامد، ويزجرهم عن القبيح من الأفعال، وان كان قد بالغ في مقارنته بالدين، إلا أنه يبين دوره التربوي في غرس كريم الأخلاق في نفوس متعاطيه، وصقل قرائحهم فيكون باعثا على التفكير السليم، إن الذي جعل الشعر يضطلع بهذه الوظيفة التربوية هو المكانة التي يحتلها داخل المجموعة الثقافية التي كانت شديدة الارتباط به، وشديدة التأثر به أيضا، فقد كان لقدرته على التأثير والتوجيه بعدا تربويا فهو يحمل قيم المجموعة وأعرافها، ويثبتها في النفوس من خلال تقديمها في قالب جمالي يدفع النفوس إلى التعلق بها وتمثلها.

ويظهر البعد التربوي للشعر عند الثعالبي في حديثه عن التأديب، فجعل من الشعر وسيلة تربوية، ترغب في الفضائل، وتزدري الرذائل، فربط بين تعلم الشعر وتلقيه وبين تربية النفس وإصلاحها حيث يقول " إن الرجل – الملك أو السُّوقة – إذا صيّر ابنه في الكتاب أمر معلمه أن يعلّمه القرآن والشعر، فيقرنه بالقرآن، ليس لأن الشعر كهو، ولا كرامة للشعر، لكنه من أفضل الآداب، فيأمره بتعليمه إياه، لأنه توصل به المجالس، وتضرب فيه، وتعرف به محاسن الأخلاق ومشاينها، فتذم وتحمد، وتهجن وتمدح، وأي شرف أبقى من شرف يبقى بالشعر؟" (الثعالبي، 1300، 26).

ولم يقتصر الشعر القديم على هذه الوظيفة التربوية فقط، بل غدا في ظل هذه الوظيفة، أمرا لابد منهللمتأدب والمتعلم، وأصبح مادة ثقافية لابدّ منها لمن يضطلع بمهمة التأديب، فدعي إلى حفظه، والعناية به، فالثعالبيهنا يشترط العلم بالشعر في المؤدب الذي يتصدى للتأديب والتربية، إذ لم يعد الشعر القديم مجرد وسيلة يستعان بها في التربية، بل صار شرطا لازما للمتأدب والمتعلم، وصار مادة مقررة من قبل المربين والمؤدبين في تعليم الأبناء لما يحمله من قيم، ولما يحث عليه من مكارم، ضف إلى ذلك مكانته في مجالس العلماء والخاصة.

ويتجلى البعد التربوي للشعر عند ابن عبد البر من خلال الوظيفة التي يقوم بها، والتي تشبه إلى حد بعيد المؤدب أو المربي، فهو المرشد إلى الخير، الدال على الفضيلة، المحذر من الشر، الزاجر عن خوارم المروءة، فيرى أن طالب العلم لابد له من مدارسة الآداب ومطالعتها، إلى جانب الإلمام بمعاني الكتاب والسنة، فالأدب بما يحويه من معاني يقوم النفس ويربي الفرد، فيجعله مترفعا عن الدنايا والمحارم. يقول ابن عبد البر " إن أولى ما عُني به الطالب، ورغب فيه الراغب، وصرف إليه العاقل همّه، وأكد فيه عزمه . بعد الوقوف على معاني السنن والكتاب . مطالعة فنون

الآداب، وما اشتملت عليه وجوه الصواب من أنواع الحكم التي تحيي النفس والقلب، وتشحذ الذهن واللبّ، وتبعث على المكارم، وتنهى عن الدنايا والمحارم " (ابن عبد البر القرطبي، 1962، 35).

يرى ابن عبد البر أن طالب العلم، والراغب فيه، لابد له بعد العناية بالكتاب والسنة من مدارسة الشعر ومعرفة معانيه، لما يشتمل عليه من حكم تصقل الذهن، وتسموا بالنفس، وتشحذ الفكر، فيرى ابن عبد البر في الشعر المربي والمؤدب، إذ لم يعد الشعر بالنسبة إليه وسيلة للتأديب، بل صار هو المؤدب والمربي والموجه والمعين، لقد بالغ ابن عبد البر في جعل الشعر يغني عن المؤدب، وأعطاه وظيفة أسمى تتمثل في الضبط الذاتي، وكأنه رقابة داخلية، إذ المعاني والقيم والحكم التي يحويها الشعر، تبعث متعلمه على المكارم، وتنهاه عن المحارم والدنايا.

لقدكان العرب القدامى – من علماء وفقهاء وأدباء ونقاد وغيرهم–كثيريالإشادة بوظيفة الشعر التربوية، المتمثلة في قدرته على ضبط سلوك المتأدب وتوجيهه إلى مكارم الأخلاق، وشحذ ذهنه وصقل عقله، وصار ضروري للمتأدب وطالب العلم، مكنه من ذلك غزارة معانيه وجميل تراكيبه، إلى جانب أوزانه وقوافيه، ما جعله حاضرا في قريحة الناس، سهل الاستحضار، تهفوا إليه النفوس، وتأنس به العقول، وعليه فقدكان الشعريستطيع بما يمتلك من طاقة جمالية، ومتعة فنية، أن يكون وسيلة للتربية والحفاظ على القيم الاجتماعية والتقاليد والأعراف وتثبيتها في النفوس. ولذلك كان مادة رئيسة من مواد التربية والتعليم، لا يستغنى عنها طالب، بل بدا أثره أحياناً كبيرا في المتأدبين بعد أثر الدين فقدكان جديرا بأن يضطلعبالدعوة الحقّ والفضيلة، والنهي عن الباطل والرّذيلة.

4- البعد التعليمي للشعر عند العرب القدامى:

أ- البعد التعليمي الديني للشعر عند العرب القدامى:

إن من وظائف الشعر التي استحدثها العرب في بعده التعليمي هي الرجوع إليه إذا أشكل عليهم فهم كتاب الله (عزّ وجل)، وحديث النبي (صلى الله عليه وسلم)، فاكتسب الشعر القديم إثر ذلك أهمية كبيرة، كيف لا وقد أصبح مصدرا مهما للاستشهاد على عربية الاستعمالات اللغوية في القرآن الكريم، ومعينا مهما لمعاني ألفاظه،لاسيما أن القرآن الكريم كان فيه من جميع لغات العرب. وعليه تحول الشعر القديم إلى وسيلة تعليمية، فقد وظف عمر بن الخطاب وابن عباس الشعر القديم كوسيلة تعليمية من خلال تفسيرهما للقرآن الكريم، وما أشكل على العامة فيه، من خلال الاستعمال الشعري، فقد أنس العرب بالشعر وباستعمالاته اللغوية، فقدكان بالنسبة إليهم مرجعا للاستعمال اللغوي، ولماكان الأمر كذلك صار لزاما أن يفسر القرآن واستعمالاته اللغوية بالرجوع إلى الشعر.

روي عن عمر أنه سأل مرة عن معنى قوله تعالى " أو يأخذكم على تخوّف " فقام شيخ من هذيل، وقال: هذه لغتنا، التخوُّف التنقُّص. فقال عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم، وروى قول الشاعر:

تخوُّف الرجل منها تامكاً قرِداً كما تخوَّف عودَ النبعة السَّفِنُ

فقال عمر لأصحابه " عليكم بديوانكم. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني الكلام " (الشاطبي، (دت)، 87-88).

وفي هذه الرواية دليل على البعد التعليمي للشعر الجاهلي باعتبار الوظيفة التفسيرية التي وهبت له، بل حث عليه وسماه ديوانا، أي جامع لمعاني العرب، وعليه وجب تسخيره لتبيان معاني القران، فالشعر كان يعد نموذج الاستعمال اللغوي قبل الإسلام عند العرب، وكان النص الوحيد الذي يمكن تمثله والاستئناس به في فهم معاني العربية.

وكان ابن عباس أعلم الناس بتفسير القران بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يحيل في كثر من الأحيان على الشعر القديم، من أجل تقريب الأفهام، ولاستئناس به في تفسير كثير من آي القرآن الكريم، فقد رويت عنه العديد من المرويات التي يوجه فيها الناس إلى الشعر القديم من أجل تيسير ما أشكل عليهم من القرآن، أو من أجل تسهيل غريب القرآن ونجد ذلك واضحا في قوله " إذا تعاجم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر عربيّ " (الطبري ابن جرير، 1954، 206). وغير بعيد عن هذه اللهجة التي تحصر الشعر القديم في هذه الوظيفة التعليمية التفسيرية التي يستعان به من خلالها على فهم القران الكريم، فنجده يقول " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب " (السيوطي، 1974، 119/1).

يوجه ابن عباس من أشكل عليه شيء في القرآن الكريم إلى الشعر، فالشعر عنده المرجع والمصدر في لغة العرب، فلابد من الاستعانة به في فهم القرآن، وتراكيبه، فالشعر يمثل الاستعمال النموذجي للغة العربية قبل نزول القرآن، فوجب الرجوع إليه وتمثله لأن العرب تأنس به لأنه الحامل لمعانيها والجامع للغتها فهو ديوان العرب، فيصبح للشعر إذ ذاك وظيفة تعليمية دينية، فالمتفقه في الدين، أو المشتغل بالتفسير لابد له من معرفة الشعر، والمتعلم وطالب العلم في هذه الميادين لا يفلح إلا إذا حفظ الأشعار، فالشعر وسيلة لا غنى عنها للمتعلم لكي يفهم معاني القرآن ودلالاته.

وكثيرة هي المرويات التي تؤكد هذا المنزع التعليمي للشعر القديم عند ابن عباس، فقد عرف عنه (رضي الله عنه) حرصه على ربط الاستعمالات اللغوية في القرآن الكريم بالشعر القديم، للدليل على عربيتها، ومعرفة العرب بها، وكذلك بالنسبة للألفاظ والمعاني، فقد روي عن عكرمة أنه قال: ما سمعت ابن عباس فسّر آية من كتاب الله – عزّ وجلّ – إلا نزع فيها بيتاً من الشعر، وكان يقول: " إذا أعياكم تفسير آي من كتاب الله فاطلبوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب " (أبو تمام، 1964، 3/1) .

وعن سعيد بن جبير قال: سمعنا ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه كذا وكذا، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا " (فضل الله، 2010، 168). يؤكد النص السابق هذا البعد التعليمي للشعر بوصفه وسيلة في مفهم وتفسير القرآن الكريم، وكأن بان عباس (رضي الله عنه) يؤكد لنا أن المتعلم للقرآن وتفسيره لابد له من معرفة ودراية بالشعر حتى يستطيع الإحالة عليه، لإفهام الناس بعض ما يعجم عليهم من القرآن الكريم، ولكي يعرف معاني الألفاظ، والاستعمالات البلاغية والبيانية، ذلك أن الشعر القديم هو ديوان العرب، ومصدر لغتهم، فوجب الإحالة عليه لتبيان عربية أي استعمال لغوي.

وسار على خطى ابن عباس كثير من العلماء يرون في الشعر القديم مصدرا ومعين للاستشهاد على معاني القرآن الكريم، وتكريسا لبعد آخر لأبعاد الوظيفة التي يضطلع بها الشعر، وهو البعد التعليمي، الذي يجعل من الشعر وسيلة لفهم غريب القرآن، وتسهيل ما أشكل من آياته، وحجة على عربيته، ومن هؤلاء نجد أبو زيد القرشي الذي يرى أن للشعروظيفة تعليمية بوصفه مصدرا للشواهد على معاني القرآن والحديث، وهذا ما جعله يعقد بابا في كتابه (جمهرة أشعار العرب) بعنوان "ما وافق القرآن من ألفاظ العرب" (أبو زيد القرشي، 1992، 113/1-139) أورد فيه أشعارا للجاهليين تضمنت العديد من المعاني التي ورد مثلها في القرآن الكريم ليحتج بذلك على أن القرآن نزل بأسلوب العرب؛ فالشعر عنده إذ ذاك شاهد على عربية القرآن، ووسيلة إلى فهمه في الوقت نفسه.

لقد روض العلماء العرب المسلمين الشعر القديم، وأفادوا من تعلق العرب به، فأوجدوا له وظائف عدة، منها هذه الوظيفة التعليمية المرتبطة بتفسير القرآن الكريم وفهم استعمالاته اللغوية. وبذلك صار الشعر القديم أداة من أدوات التعليم الديني، بل صار مادة أساسية لطالب العلم الشرعي، إذ صار مطالبا بحفظ الأشعار وروايتها، فهي تمكنه من فهم القرآن والحديث، وتمكنه من الإلمام بالمعاني إلى جانب ما في الأشعار من حكم وآداب ومواعظ، يقول السيوطي " وليُعْتَنَ بحفظ أشعار العرب، فإن فيها حكماً ومواعظ وآداباً وبها يستعان على تفسير القرآن والحديث " (السيوطي، (دت)، 309).

ب- البعد التعليمي اللغوي للشعر عند العرب القدامى:

لقد اضطلع الشعر بوظيفة التأصيل للغة العربية، كون العلماء الذين قعدوا لهذه اللغة رجعوا للشعر القديم وتمثلوه كونه أصل الاستعمال اللغوي الذي حافظ على سلامة اللغة في اعتقادهم، ومن ثم كان الحفاظ على لغة الشعر حفاظا على اللغة وحفاظا على الثقافة، والهوية العربية، كون اللغة من أهم الأسس التي تقوم عليها ثقافة الأمةولعل ذلك راجع أيضا للوظيفة التعليمية لهذا الشعر في بعدها اللغوي خاصة، فقد كان الشعر كما أسلفنا مصدرا هاما للاستشهاد عند المشتغلين بالتقعيد للغة العربية، ونموذجا للسلامة والصحة اللغوية، فقد تمكن اللغويون بفضل هذا الشعر من وضع قواعد اللغة، وضبط قوانين النحو العربي، وقد كانت مدارسة هؤلاء العلماء للشعر وجمعه وشرحه، هي التي مكنتهم من القدرة على تذوقه، ومعرفة ضروبه، والنظر فيه بعد ذلك، وإبداء الرأي فيه، بل وتصحيحه

وتصويبه، متكئين في ذلك على خبرتهم به من جهة، وعلى القواعد التي وضعوها لضبط اللغة من جهة أخرى (قرماط عبد القادر، بوشيبة بوبكر، 2021، 99)

ولعل مرد كثرة الاحتجاج بالشعر عند اللغويين– في اعتقادنا – أن الشعر يمثل استعمال النخبة للغة، لأن الشعراء عند العرب كانوا يمثلون خاصة القوم ونخبتهم، بل كانوا يحتلون هرم التراتبية الثقافية عند العرب، فكان لزاما أن يكونوا أحرص في استعمال اللغة من العامة. فقد كان الشعراء أعلم الناس بخصائص اللغة، وضروب استعمالها، بحكم قدرتهم على اجتلاب المعاني وما يلائمها من ألفاظ وصيغ، وتراكيب. وإنما كان ذلك مرده إلى حرصهم على صحة اللغة وسلامة مصادرها، فقد أنس النحويون إلى الشعر وأحسوا أنه يمثل لغة العرب، فمادته خصيبة وفيرة مع سهولة الحفظ والرواية فاعتمدوا عليه. والملاحظ أن الاحتجاج بالشعر أفشى وأشيع كثيراً من الاحتجاج بكلام العرب النثري، ولعل هذا سببه شيوع حفظ الشعر لأن إيقاعاته تساعد على حضوره الدائم في ذاكرة الأمة، وبذلك نال الشعر عنصر الضبط الذي جعله حرياً بأن يتصدر ويصل إلى مرتبة عليا من الاحتجاج (المرجع نفسه، 102)

إن ما يفسر هذا الحرص هو أن علماء اللغة كانوا يحاولون أن يجعلوا من الشعر نموذجا لغويا، يمثل الصفاء والصحة اللغوية، وعليه وجب أن يكون هذا النموذج اللغوي أصيلا، حتى يكون مثالا يُحتذى في الاستعمالات اللغوية، ومعيارا يحكم من خلاله على الخطأ والصواب في الاستعمال اللغوي.

لقد أكسب اللغويون (علماء اللغة) الشعر العربي القديم وظيفة جديدة وهي حفظ اللغة، ولذلك صار لهذا للشعر عند العرب القدامى وظيفة تعليمية تساعد في تعليم اللغة، وصقل الملكة الأدبية، ويحسن المخارج، فقد حرص معاوية على تلقين الشعر للمتعلمين، فقد طلب للحارث بن نوفل أن يعلم ابنه الشعر، للوظائف التعليمية الجمة التي يضطلع بها، والتي عددها معاوية للحارث في قوله: "ما علّمتَ ابنك؟ قال: القرآن والفرائض. فقال: روِّه فن فصيح الشعر، فإنه يفتّح العقل، ويفصّح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة " (أبو أحمد العسكري، 1960، 137).

يدل النص السابق على وعي معاوية بالوظيفة التعليمية للشعر، فقد بين لصاحبهمجموع ما يمكن أن يستفاد من تعلم الشعر وحاول أن يربط ذلك بتعلم اللغة، فتعلم الشعر عنده يفصح المنطق، أي يرشد إلى النطق السليم، ويصحح المخارج، ويطلق اللسان من خلال النطق الصحيح للألفاظ، فحفظ الشعر وروايته تمرين للسان على الفصاحة، وتدريب للعقل على البلاغة، فالمتعلم للغة لابد له من الشعر، فهو النموذج في الفصاحة والبلاغة والبيان عند العرب.

وقد ألمح عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لهذا الجانب من وظيفة الشعر في قوله عنه " يفتِّق الفطنة، ويشحذ القريحة " (المضفر بن الفضل العلوي، 1976، 169)، فالشعر القديم عند عمر ابن الخطاب يولد في المرء الفطنة،

وسرعة البديهة، من خلال مجموع المعاني التي يحصلها من خلال إعمال الفكر في نصوصه، وصقل الذكاء بمدارسة الشعر لمعرفة مراميه، فيصبح إذ ذاك فطنا، ويشحذ القريحة بمجموع القيم التي يستفيدها، والمعارف التي يحصلها، والتجارب التي يعاينها، من خلال الشعر، فيصبح للشعر القديم بعدا تعليميا.

وكانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) تروي الشعر وتحث على تعلمه، لمعرفتها بالبعد التعليمي الذي ينطوي عليه، فقد أمرت بتعليمه للناشئة حتى تحسن سليقتهم، فقالت (رضي الله عنها) " رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم " (المصدر السابق، 169). يتجلى هنا البعد التعليمي للشعر، فيصبح لابد للمتعلم من رواية الشعر حتى يتمكن من اللغة، وحتى يستقيم لسانه، وتصح مخارجه، وتلطف مقاصده، فيعذب لسانه، فيصبح بذلك الشعر نموذجا لغويا وبلاغيا يحاول المتعلم احتذاءه في استعماله اللغوي، ومقاربته في توظيفه الجمالي.

وفي عرض حديثه عن وظيفة الشعر أشار الباقلاني إلى الدور الذي يلعبه الشعر في صون اللغة العربية، مع تأكيده أن الحاجة إلى الشعر لا تقارن بأي حال بالحاجة إلى القرآن الكريم، ولكن " الحاجة إليه تقع لحفظ العربية " (الباقلاني، (دت)، 19). فالحفظ هنا يمثل الرقابة على الاستعمال اللغوي للمجموعة الثقافية، والتي تتجلى من خلالها هيمنة الشعر القديم بوصفه نموذجا للاستعمال اللغوي، بمعنى نموذجا للصحة اللغوية، فوجب على المتعلم رواية الأشعار، ومدارستها، كي يستقيم استعماله للغة، ولكي يقف على الاستعمال الجمالي والفني للغة، والذي يمثل إلى جانب ذلك استعمالا معيارا، يمكن تمثله، إلى جانب القران الكريم طبعا.

وكان الدافع إلى هذه الوظيفة التعليمية هو اتفاق علماء العربية على فرادة لغة الشعر، وتميزها عن لغة النثر وعن اللغة العادية في استغلالها لإمكانات اللغة التعبيرية والدلالية والجمالية الفنية، ويلخص ذلك الجرجاني في حديثه عن الشعر " إنه يشتمل على اللفظ الجزل، والقول الفصل، والمنطق الحسن، والكلام البيِّن... وحسن التمثيل والاستعارة، والتلويح والإشارة " (الجرجاني عبد القاهر، 1992، 170).

خاتمة:

الشعر ديوان العرب، ومستودع حكمتهم، ومستقر علومهم، لم يكن لهم علم أفضل منه ولا أرفع منه، دخل في مسارب حياتهم كلها، واختلط بشؤونهم كافة: العامة والخاصة، حتى صار سمة تسمهم وتميزهم من غيرهم من الأمم الأخرى.والشعر ميدان واسع ارتادته فئات مختلفة، منها: النقاد والأدباء والفقهاء والمحدثون والمؤرخون والقضاة والعلماء، وغيرهم، حتى ندر أن تجد عَلَماً من أعلام العرب لم ينظم الشعر، ولم يخلف ديواناً يبزُّ دواوين الشعراء المعروفين كماً ونوعاً، ويكفي أن تنظر في ترجمة أحدهم حتى تدرك صحة هذا الأمر، بل إن بعضهم اشتهر بشعره أكثر من أدبه وعلمه.

وكان البعد التربوي والتعليمي من تلك الأبعاد الكثيرة التي عرف بها الشعر، حتى صاراومصدرا لها وسيلة إليها، فقد لجأ إليه المؤدبون والمعلمون العرب القدماء يغرفون الأدلة والشواهد من معين مائه الذي لا ينضب، يستدلون به على حسن القيم، ووجوب أعراف، ومكارم أخلاق أو على صواب فعل وفساد غيره، ويستدلون به على معنى، أو استعمال لغوي تسعفهم في ذلك ذاكرة حافظة وثقافة واسعة وعلم غزير.

لقد كان الاهتمام بالبعد التربوي والتعليمي للشعر عند العرب القدامى راجع لوظائف هذا الشعر، فقد كان الشعر كما أسلفنا وعاء اللغة ومستودعها، فاقتبس منه الشاهد والمثل، وغدا مادة احتجاجية لا غنى عنها، كما نُظِر إليه على أنه يمثّل أرقى أشكال اللغة وأبهاها وأفصحها، وكذلك كان مادة ثقافية لابدّ منها لكل متأدب، فقد تمكن المعلمون والمؤدبون بفضل هذا الشعر من صقل مواهب المتعلمين، وتنمية ملكاتهم اللغوية، وتهذيب أذواقهم، وشحذ قرائحهم، وقد كانت مدارسة هذا الشعر وروايته، هي التي مكنتهم من القدرة على تذوقه، ومعرفة معانيه، وتمثله بعد ذلك نموذجا تعليميا وتربويا.

المصادر والمراجع:

- ابن عبد البر القرطبي، هجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962م.
- ابن قتيبة، عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م.
- أبو أحمد العسكري، المصون، تحقيق عبد القيوم هارون، الكويت، 1960.
-أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية، جامعة و هران، الجزائر ، دط،، 1996.
- أنطوان صياح وآخرون، تعليمية اللغة العربية، دار النهضة العربية، لبنان،ط1،ج1، 2006.
- الباقلاني ابوبكر بن الطيب، إعجاز القران، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط 3، القاهرة، (د.ت).
- بشير إبرير، في تعليمية الخطاب العلمي، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 11 جوان، 2001.
- أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة ، 1964.
- الثعالبي، اللطائف والظرائف، المطبعة العامرية الشرقية، مصر، 1300هـ.
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني-مطبعة المدني، ط3، جدة-القاهرة، 1992.
- حكمة عبد الله البزاز د. إبراهيم مهدي الشبلي . مدخل إلى التربية . مطبعة المجمع العلمي . العراق . بغداد . 2002 .
- أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، 1992.

– السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.

– السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، وآخرون، مطابع عيسى البابي الحلبي، مصر، (د ت).

– الشاطبي، الموافقات، المطبعة الرحمانية، مصر، (د ت).

– الطبري أحمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، ط2، القاهرة 1954م.

– المضفر بن الفضل العلوي، نضرة الاغريض في نصرة القريض، تحقيق، نهى عارف الحسن، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1976.

– نبية ياسين : أبعاد متطورة للفكر التربوي ، مكتبة الخانجي ، مصر، (دت).

– فضل الله، وظيفة الشعر عند النقاد القدامى، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، العدد 18، 2001.

–قرماط عبد القادر، بوشيبة بوبكر، سلطة اللغة في التفكير النقدي عند العرب، مجلة الإنسان والمجال، المركز الجامعي البيض، مجلد:7 عدد: 2 ديسمبر 2021 .